# مع الامام علي

بقلم : مفيد آل ياسين

بويع علي (ع) بالخلافة بعد مقتل عثمان فقد جاءه الناس يهرعون وهم يقولون أمير المؤمنين[1] ، حيث بايعه الانصار والمهاجرون ومن كان موجوداً في المدينة من رؤساء الامصار .[2]

وكان الامام (ع) كارهاً للبيعة في بداية الامر ولكنه قبلها نتيجة الحاح الصحابة عليه حيث يقول الطبري «سأل علياً أصحاب رسول الله أن يتقلد لهم وللمسلمين فأبى عليهم فلما أبوا عليه وطلبوا اليه تقلد ذلك لهم»[3] ويصف لنا الامام نفسه بيعته بالخلافة بقوله «وبسطتم يدي فكففتُها ومددْتُموها فقبضتُها ثم تداككتم عليَّ تداكَّ الابل الهيم على حياضها يوم وردها حتى انقطعت النعل وسقطت الرداء ووطيء الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إيايَ ان ابتهج بها الصغير وهدَج اليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت اليها الكعاب»[4] كما يخاطب الناس مبيناً منهجه اللا حب في تطبيق العدالة الحقة ومشيراً الى بيعته بقوله «لم تكن بيعتكم اياىَ فلتةً . وليس أمري وأمركم واحداً اني اريدكم لله وانتم تريدونني لانفسكم . أيها الناس أعينوني على أنفسكم وايم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامته حتى اوردَه منهل الحق وان كان كارها»[5]

رسم الامام (ع) منهاجه في الحكم على الاسس الاسلامية القويمة الصحيحة حتى ليعتبره الباحثون والمستشرقون المثل الصحيح للتيار الاسلامي في فترة عنفوان التيار القبلي الذي طغى في زمن خلافة عثمان بن عفان ، ولابتعاد العهد عن فترة الرسالة المحمدية .

---

(١) البلاذري : انساب الاشراف ٥/٧٠ .
(٢) اليعقوبي : التاريخ ٢/١٦٧ .
(٣) الطبري : التاريخ ٣/٤٥٠ .
(٤) ابن ابي الحديد : شرح النهج تحقيق ابو الفضل ١٣/٣ .
(٥) نفسه : ٩/٣١ .

ولقد كان مجيء الامام الى الحكم في فترة مرهقة مرتبكة ، في فترة انقسام قريش وتجزؤ الامصار وخرق حرمة المدينة والخلافة بدخول القبائل المتذمرين الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان[٦] . ومع هذا فلم يدار الامام النزعات والعصبيات القبلية وانما حاول صهرها في قالبه الاسلامي المبني على السير بهدي القرآن وسيرة الرسول (ص) .

نشأ علي بن أبي طالب منذ نعومة أظفاره في أحضان الرسالة المحمدية فكان عليه السلام أول صادعٍ برسالة الله المتمثلة برسالة محمد (ص) حيث شاركه في وضع اللبنات الأولى للكيان الاسلامي منذ ولادته وسار معه في طريق الدعوة الوعر الشاق متحملا مع النبي (ص) أعباء الرسالة ومسؤولياتها الجسام منذ نزلت الآية المباركة «وانذر عشيرتك الاقربين» حتى يوم بيعة العقبة الأولى وحتى في الهجرة حيث فدى علي بنفسه صاحب الرسالة عندما تحالفت على قتله مختلف القبائل الكافرة فبات في فراش رسول الله مفتدياً رسالة الله .

وهكذا كان الامام (ع) بطل الاسلام الثاني فبسيفه انتصرت رسالة محمد يوم بدر وأحد والخندق وخيبر ويوم فتح مكة وواقعة حنين . وبفكره وبيانه وسيرته ضرب أعظم الامثال للانسان الكامل من خلق عظيم ومروءة فذة وشهامة نادرة وعدل سام وعفة ونبل لا يجاريان وزهد قصر عنه الزاهدون وتواضع لم يعرفه حتى الضعفاء والمساكين وشجاعة لم يسجل التاريخ أروع من صفحاتها وصلابة في العقيدة لم يستطع أحد أن يبلغها أو يأتي على كنهها وعلم زخار حير العقول والالباب منذ يومه والى يوم الدين فأي مثل للانسانية الكاملة في القول والفعل أنت يا ابن أبي طالب .

وعلي بن أبي طالب هو الذي اختاره الله ليكون أخاً لرسوله وخيرته من خلقه حينما قارن النبي النظر بالنظير والمهاجر بالنصير . وهو الذي رفعه النبي في حجة الوداع وولاه عهده وأمّره على المؤمنين وأخذ له البيعة من المسلمين حين قال (ص) «من كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصرْ من نصره واخذلْ من خذله . . الخ»[٧] وهو الذي قال له النبي «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي»[٨] وهو الذي قال فيه النبي يوم برز في واقعة الخندق لفارس العرب عمرو بن عبد ود «برز الايمان كله الى الشرك كله»[٩] وهو الذي

---

(٦) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٦٨ .

(٧) المسعودي : مروج الذهب ٢/٤٣٧ والبكري : معجم ما استعجم ٢/٣٦٨ وانظر الجزء الأول من كتاب الغدير للشيخ الاميني للالمام بمختلف مضان وطرق رواية حديث الغدير .

(٨) المسعودي : ٢/٤٣٧ وقال الكنجي في كفاية الطالب بعد ذكر طرقه هذا حديث متفق على صحته رواه الائمة الحفاظ كالبخاري ومسلم وابن داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٩) العلامة الحلي : كشف اليقين في فضائل امير المؤمنين ص ٤٧ .

قال فيه النبي يوم خيبر «لاعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار»[١٠]

فأي شخصية عملاقة فذة نادرة شخصيتك يا علي يحبك الله ، ويحبك رسوله ويحبك ويواليك من يحب الله ورسوله . فلعمري أنت تجسيد حي واقعي واضح صريح للعقيدة الحقة العميقة والعدل الاسلامي والحق الالهي والمروءة والمساواة المؤمنة بالله المعتمدة عليه المستمدة منه .

أُبعد عليٌّ (ع) عن حقه في خلافة رسول الله وشاءت فئة من المسلمين أن يولوها لغيره فكانت خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ثم أجمع المسلمون بعد مقتل الاخير على بيعته فبويع في أواخر ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين للهجرة .[١١] ولقد وضح الامام ذلك في احدى خطبه بقوله : «ان الله لما قبض نبيه ، استأثرت علينا قريش بالامر ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة فرأيت ان الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم والناس حديثوا عهد بالاسلام والدين يُمْخَضُ مخض الوطب يفسده أدنى وهن ويعكسه أقل خُلف فوليَ الامر قوم فَلم يألوا في أمرهم اجتهادا ثم انتقلوا الى دار الجزاء والله ولي تمحيص سيئاتهم والعفو عن هفواتهم . .»[١٢] .

وأخذ الامام يجهد نفسه ويعمل فكره لاعادة الامور الى مواضعها شؤون دولته ، فاتبع سياسة رائعة فذة في مجابهة المشاكل المعقدة العويصة وارجاع الحقوق الى نصابها والتمسك بتعاليم الاسلام وتطبيقه على مختلف المرهقة التي برزت أمامه منذ يوم مبايعته بالخلافة . ولقد شاءت أحقاد المغرضين من أعدائه وقصر نظر من يعتبر نفسه من الموضوعيين في كتاباته أن ينعتوا علياً بكونه رجلاً شجاعاً ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسية . في حين ان مواقفه في الحرب والسياسية تظهر انه كان قمة عالية في الدهاء الحربي والسياسي وحلوله للمشاكل المعقدة التي جابهته في أيام خلافته تبين بكل وضوح انها الحلول الوحيدة الصالحة لحل تلك المشاكل بل انه في اسلوبه العلاجي لظروفه الخاصة آنذاك أعطى دروساً بالغة لمن يجعل الله بين عينيه ولمن يحاول أن يتطلع الى الخلق الاسلامي والدهاء الملتزم بالعقيدة فيتعظ بالرجال العظام الافذاذ من أمثاله عليه السلام .

وأهم ما نعوا عليه من المآخذ في هذا الشأن هي :

---

(١٠) اليعقوبي ٤٦/٢ .
(١١) نفسه ١٦٧/٢ .
(١٢) ابن ابي الحديد : شرح النهج ٣٠٩/١ .

١ ـ عزله لولاة عثمان ولمعاوية بن أبي سفيان بصورة خاصة .
٢ ـ خروجه لطلحة والزبير وعائشة .
٣ ـ قبوله للتحكيم في صفين .

فأما عزله لولاة عثمان ومعاوية بوجه خاص فكيف لا يعزلهم وهو امام الحق والعقيدة والهدى ؟ وكيف يقرهم وهم الخارجون على تعاليم الاسلام ! وهل يتصور من آخذه على ذلك بأنه اتخذ هذا الموقف دون دراسة أو بصيرة أو تعمق ، بل على العكس تماما حيث يحدثنا المؤرخون[١٣] بما عرضه عليه المغيرة بن شعبة وهو المعروف بالدهاء والحيلة حيث قال للامام بقصد النصيحة والمشورة «اقرر معاوية على عمله واقرر العمال على أعمالهم حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت» فأبى عليه السلام وقال «لا اداهن في ديني ولا اعطي الدنية في أمري» فقال له المغيرة «فان كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية فان في معاوية جرأة وهو في أهل الشام يستمع له ، ولك حجة في اثباته اذ كان عمر قد ولاه الشام» فقال عليه السلام «لا والله لا استعمل معاوية يومين» وقال عبد الله بن عباس للامام (ع) لما علم برأي المغيرة : انه نصحك ، فقال عليه السلام ولِمَ نصحني ، قال ابن عباس «لانك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيا» ولكن الامام لم يسمع دهاء المغيرة ولا ابن عباس بل اعمل دهاءه بعدم المداهنة في الدين وعدم اعطاء الدنية في الأمر .

ولو كان علي بن أبي طالب قد سمع رأي المغيرة وعمل به لما كان عليّ المقر معاوية علياً الذي يعوي معاوية عليه ، ولقيل فيه كما يقال في أي طالب حكم غرضه الوصول الى بغيته . ثم ان الامام علياً كان وصحبه يؤاخذون عثمان على اقراره معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب ، فلا يقبل الامام هذا العذر منه ، فكيف يقر هو معاوية . كما ان معاوية ذاته لم يكن يحسب نفسه والياً على الشام فحسب وانما كان يعتبر الشام مهداً ومركزاً للسلطان الاموي منذ أن ولى الخليفة الأول أبو بكر يزيد بن أبي سفيان شقيق معاوية على الشام ثم جاءت تولية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لمعاوية بن أبي سفيان عليها مؤكدة في نظر معاوية فكرة اقامة الكيان الاموي في الشام فسعى في سبيل ذلك ما وسعه السعي من اصطناع المؤيدين والاعوان وشراء الذمم والضمائر واحاطة نفسه بالقوة والثراء ثم جاءته الآن فرصة المطالبة بدم عثمان ضد علي فهل يضيّعها من يديه حجة لاقامة كيان الاموية الذي خطط في سبيله ما شاء له فكره من التخطيط . وهل من الحنكة والدهاء اقرار مثل هذا الرجل على ولايته الى حين ! ثم عزله عنها ، ومن يضمن من معاوية بن ابي سفيان الطاعة والامتثال لعلي بن ابي طالب . ثم الا يفسر اقراره على ولايته ولو لبعض الوقت تفسيراً لصالح معاوية وتزكية له ولاعماله . فكان اذن موقف الامام علي من معاوية

(١٣) الطبري ٤٦١/٣ والمسعودي ٣٦٣/٢ ـ ٣٦٤ .

هو الموقف السياسي الصائب الذي يدل على سمو الفكر وبعد النظر والدهاء منسجماً مع الخط الاسلامي الصحيح الذي سار عليه الامام حيث أكد تمسكه بكونه خليفة للمسلمين وليس حاكماً يهمه الكسب السياسي فحسب .

اما عن موضوع طلحة والزبير فلقد كان موقف الامام منه موقفاً حازماً يدل دلالة واضحة على سعة الأفق والعمق في الدهاء الحربي والسياسي حيث كان رأيه في الموضوع ارجح الآراء الاخرى التي عرضت عليه من قبل الساسة والدهاة ممن حوله فلقد كان رأي بعضهم ان يولي الامام طلحة والزبير اليمن والبحرين أو الكوفة والبصرة فأنكر الامام هذا الرأي معللاً ذلك بأن «العراقين بهما الرجال والاموال ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ويضربا الضعيف بالبلاء ويقويا على القوي بالسلطان[١٤]» ثم يخرجان من طاعته وهما أقوى مما لو كانا بغير ولاية كما يستفيدان من توليتهما تزكية لهما من الامام وحجة يثيرانها بين اصحابه وانصاره .

وكان رأي البعض الآخر أن يسعى للفرقة بينهما ولا يجعلهما يتفقان على عمل لينجحا فيه وذلك بتولية أحدهما ومنع الولاية عن الثاني فلم يوافق الامام على هذا الرأي ايضا لأنه من يضمن اليه عدم انقلاب من يوليه منهما كما من يأمن جانب من حرم الولاية .

وكان الرأي الثالث أن يعتقلهما ولا يسمح لهما بالخروج من المدينة الى مكة حين طلبا اليه الاذن بذلك[١٥] ، ثم خرجا الى البصرة ليثيراها ضد الامام . وكان الامام يعرف نواياهما جيداً حيث قال عن خروجهما : «والله ما أرادا العمرة ولكنهما أرادا الغدرة[١٦]» . ولم يأخذ الامام بالرأي الثالث ايضا لأنه سبق لامثالهما أن تركوا المدينة دون اذن من الامام وتسللوا الى مكة والشام ، كما ان اعتقالهما اثارة لعواطف بعض الناس خاصة وان الامام لايزال في بداية حكمه وان العثمانية جادة في العمل بمكة ناهيك عن البصرة .

فكان رأي الامام في مسألة طلحة والزبير وخروجه لهما وقد انخرطت الى جانبهما عائشة بجملها في واقعة الجمل اضمن وأجدى من غيره من الآراء حيث خرج منه وهو الغالب على طلحة والزبير وعائشة وعلى الحجاز والعراق .

أما عن مهزلة التحكيم فلقد تناسى من آخذه عليه انه عليه الصلاة والسلام لم يقبله الا بعد أن أحجم جنده عن القتال في صفين ، بل كادوا أن يقتلوا بينهم وبين مؤيدين له وخارجين عنه . وان المؤاخذ تناسى أيضا ان الامام لم يقبل التحكيم الا بعد أن شك كثير من خيرة جنده بوجوب حرب حملة المصاحف بل ذهب بعضهم الى تحريم حربهم . وانه عليه السلام لم يقبل

---

(١٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٦٢/١ .

(١٥) انظر في ذلك اليعقوبي ١٦٩/٢ والمسعودي ٣٦٣/٢ و٣٨٢ .

(١٦) اليعقوبي ١٦٩/٢ .

التحكيم الا بعد أن توعده العديد منهم بقتله كقتلة عثمان واجتمعوا حوله يلحون عليه باستدعاء مالك الاشتر من ساحة الحرب ومالك على وشك النصر والظفر . ويعلق فلهاوزن على ذلك بقوله «كانت لمعركة صفين نتائج بالغة الخطورة ، تلك المعركة التي خدع فيها الظافر عن ظفره . . فحينما لاح خطر الهزيمة رفع أهل الشام المصاحف . . فأحدثوا في أهل العراق الاثر المطلوب . . حقاً ان علياً قد أدرك الحيلة ، بيد انه لم يستطع أن يبدد مفعولها بل هدد شخصياً لما حاول ذلك»[١٧] .

وتناسى من آخذه على قبوله بابي موسى الاشعري نائباً عنه بأن الاشعري كان مفروضاً عليه كما فرض عليه التحكيم في وقت واحد . ولقد فات على مؤاخذيه بأن الامام لو أناب بدل الاشعري مالك الاشتر أو عبد الله بن عباس لم يغيّر ذلك من الامر شيئاً فان عمرو بن العاص نائب معاوية بن أبي سفيان في التحكيم لم يكن الرجل الذي يخلع معاوية ويقر علياً وانما سيؤدي الامر الى العراق الحكمين وكل منهما يؤيد صاحبه دون حل واضح يهدىء الثورة ويزيل الاضطراب والقلق الشائع في الجند . وحتى لو افترضنا استطاعة الاشتر أو ابن عباس كسب عمرو بن العاص ، فلم يكن معاوية بالرجل المستكين الذي لا يعمل جهده وهو القوي في انصاره من أهل الشام الى اتخاذ أية حجة من الحجج للخروج على الامام ونقض ما أبرمه الحكمان المتفقان . وليس أدل على ذلك من أن النبي كان يقول عن عمار بن ياسر انه «تقتله الفئة الباغية[١٨]» فلما قتلته فئة معاوية في صفين وانتشر خبره وخبر الحديث الشريف في جيش معاوية قال قائل الاموية انما قتله من جاء به الى الحرب فانتشر هذا التفسير الغريب العجيب في جيش معاوية وقبلوه جميعاً . افلا يمكن لهؤلاء أن يقبلوا أي تفسير أو حجة أخرى من معاوية في سبيل الخروج على علي لو اتفق الحكمان على مبايعة الامام . فكان اذن موقف الامام على موضوع التحكيم وهو مكره عليه الحل الوحيد للازمة في وقتها .

ولابد لي أخيراً أن أشير الى حرب الامام للخوارج في النهروان وانتصاره عليهم انتصاراً رائعاً زرع الحقد والكراهية والثأر في نفوس بقيتهم المبعثرة في البلاد مما حدا بعبد الرحمن بن ملجم الخارجي الى أن يقوم بأبشع فعلة عرفها تاريخ الاغتيال الفاجر الدامي في الانسانية فضرب الامام بسيفه تلك الضربة الآثمة النكراء اللعينة التي أدت الى استشهاده عليه السلام ، فسلام الله عليه يوم ولد في الكعبة وسلام الله عليه يوم حطم أصنام الكعبة وسلام الله عليه يوم رفع دعائم الاسلام ونشر العدل والفكر الاسلاميين وسلام الله عليه يوم استشهد وسلام الله عليه يوم يبعث حياً .

---

(١٧) فلهاوزن : الخوارج والشيعة ص ٣ .

(١٨) اليعقوبي : ٢/١٧٧ .